بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ 16/ 6/ 1442هـ

لَقَدْ طَمْأَنَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَى مَكَّةَ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾، قَالَ: «إِلَى مَكَّةَ».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ أَغْلَى مَا يَمْلِكُ الْمَرْءُ بَعْدَ دِينِهِ هُوَ وَطَنُهُ؛ لِأَنَّهُ مَهْدُ صِبَاهُ وَمَرْتَعُ طُفُولَتِهِ، وَمَلْجَأُ كُهُولَتِهِ، وَمَوْطِنُ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ، وَمَأْوَى أَبْنَائِهِ وَأَحْفَادِهِ. وَحُبُّ الْأَوْطَانِ غَرِيزَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ فِي النُّفُوسِ، تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَسْتَرِيحُ إِلَى الْبَقَاءِ فِيهِ، وَيَحِنُّ إِلَيْهِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، وَيُدَافِعُ عَنْهُ إِذَا هُوجِمَ، ويَغْضَبُ لَهُ إِذَا انْتُقِصَ. حَتَّى الْحَيَوَانَاتُ لَا تَرْضَى بِغَيرِ وَطَنِهَا بَدِيلًا، وَمِنْ أَجْلِهِ تُضَحِّي بِكُلِّ غَالٍ ونَفِيسٍ، وَالطُّيُورُ تَعِيشُ فِي عُشِّهَا فِي سَعَادَةٍ، وَلَا تَرْضَى بِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ مِنْ حَرِيرٍ، وَالسَّمَكُ يَقْطَعُ آلَافَ الْأَمْيَالِ مُتَنَقِّلًا عَبْرَ الْبِحَارِ وَالْمُحِيطَاتِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى وَطَنِهِ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، فَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ، وَإِلَّا فَمَا الَّذِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعِيشُ فِي الْمَنَاطِقِ شَدِيدَةِ الْحَرَارَةِ يَعِيشُ فِيهَا؟، وَمَا الَّذِي جَعَلَ ذَلِكَ الَّذِي يَعِيشُ فِي الْقُطْبِ الْمُتَجَمِّدِ الشَّمَالِيِّ أَنْ يَعِيشَ تَحْتَ الْبَرْدِ الْقَارِسِ الدَّائِمِ، وَمَا الَّذِي جَعَلَ ذَلِكَ الَّذِي يَعِيشُ فِي الْغَابَاتِ وَالْأَدْغَالِ يُعَانِي مِنْ مَخَاطِرِ الْحَيَاةِ كُلَّ يَوْمٍ بِعَيْشِهِ فِيهَا؟ مَا الَّذِي جَعَلَهُمْ يَتَحَمَّلُونَ كُلَّ ذَلِكَ؟ إِلَّا حُبُّهُمْ لِوَطَنِهِمْ وَدِيَارِهِمْ.

لَقَدْ وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ يُخَاطِبُ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةَ مُوَدِّعًا إِيَّاهَا وَهُوَ حَزِينٌ، شَوْقًا وَحَنِينًا إِلَيْهَا بَعْدَمَا أَخْرَجَهُ قَوْمُهُ مِنْهَا، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ».

وَأَخْرَجَ الْأَزْرَقِيُّ فِي «تَارِيخِ مَكَّةَ»، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: قَدِمَ أُصَيْلٌ الْغِفَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أُصَيْلُ، كَيْفَ عَهِدْتَ مَكَّةَ؟ قَالَ: عَهِدْتُهَا قَدْ أَخْصَبَ جَنَابُهَا، وَابْيَضَّتْ بَطْحَاؤُهَا، قَالَتْ: أَقِمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «يَا

أُصَيْلُ، كَيْفَ عَهِدْتَ مَكَّةَ؟» قَالَ: وَاللهِ عَهِدْتُهَا قَدْ أَخْصَبَ جَنَابُهَا – أَيْ: كَثُرَ خَيْرُهَا –، وَابْيَضَّتْ بَطْحَاؤُهَا – يَعْنِي: أَشْرَقَتْ أَرْضُهَا الْوَاسِعَةُ الْمُنْبَسِطَةُ –، وَأَغْدَقَ إِذْخِرُهَا – أَيْ: فَاضَ –، وَأُسْلِتَ ثُمَامُهَا – يَعْنِي: طَرَحَتْ عُشْبَهَا –، وَأَمَشَّ سَلَمُهَا – يَعْنِي: خَرَجَ مَا يَخْرُجُ فِي أَطْرَافِهَا نَاعِمًا رَخْصًا – فَقَالَ: «حَسْبُكَ يَا أُصَيْلُ، لَا تُحْزِنَّا».

وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ لَمَّا أَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ قَوْمَهُ مُخْرِجُوهُ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟»، قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ»: قَالَ السُّهَيْلِيُّ: يُؤْخَذُ مِنْهُ شِدَّةُ مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ عَلَى النَّفْسِ، فَإِنَّهُ ﷺ سَمِعَ قَوْلَ وَرَقَةَ أَنَّهُمْ يُؤْذُونَهُ وَيُكَذِّبُونَهُ، فَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ انْزِعَاجٌ لِذَلِكَ، فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُ الْإِخْرَاجَ تَحَرَّكَتْ نَفْسُهُ لِذَلِكَ؛ لِحُبِّ الْوَطَنِ وَإِلْفِهِ، فَقَالَ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟». اهـ

لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ مَكَّةَ حُبًّا شَدِيدًا، وَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَاسْتَوْطَنَ بِهَا، أَحَبَّهَا وَأَلِفَهَا كَمَا أَحَبَّ مَكَّةَ، بَلْ كَانَ ﷺ يَدْعُو أَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ حُبَّهَا كَحُبِّهِ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا وَصَاعِنَا». هَكَذَا دَعَا ﷺ بِالْبَرَكَةِ فِيهَا وَفِي رِزْقِهَا كَمَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَكَّةَ.

وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ لِغَزْوَةٍ أَو نَحْوِهَا، تَحَرَّكَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهَا، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ الْمَدِينَةِ، وَضَعَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا». قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ»: فِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَعَلَى مَشْرُوعِيَّةِ حُبِّ الْوَطَنِ وَالْحَنِينِ إِلَيْهِ. اهـ

وَقَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «السِّيَرِ» مُعَدِّدًا طَائِفَةً مِنْ مَحْبُوبَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: وَكَانَ يُحِبُّ عَائِشَةَ، وَيُحِبُّ أَبَاهَا، وَيُحِبُّ أُسَامَةَ، وَيُحِبُّ سِبْطَيْهِ، وَيُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ، وَيُحِبُّ جَبَلَ أُحُدٍ، وَيُحِبُّ وَطَنَهُ، وَيُحِبُّ الْأَنْصَارَ. اهـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مَحَبَّةَ الْوَطَنِ تَقْتَضِي عَدَمَ الْإِتْيَانِ بِمَا مِنْ شَأْنِهِ زَعْزَعَتُهُ وَضَعْفُهُ، مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّشَرْذُمِ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ حَذَّرَ اللهُ ﷻ مِنْهُ كَثِيرًا فِي كِتَابِهِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فَكَمْ أُهْلِكَتْ مِنْ قَبْلِنا أُمَمٌ بِسَبَبِ تَنَازُعِهِا، وَانْمَحَتْ حَضَارَاتٌ بِسَبَبِ تَفَرُّقِ أَهْلِهَا.

إِنَّ أَوَّلَ نَوَاةٍ لِبِنَاءِ الْوَطَنِ وَقِيَامِ الدَّوْلَةِ: التَّآلُفُ وَالتَّوَادُّ، وَهَذَا مَا حَرَصَ عَلَيْهِ نَبِيُّنَا الْكَرِيمُ ﷺ، وَهُوَ يَضَعُ أُسُسَ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ فِي الْمَدِينَةِ، فَآخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَوَضَعَ وَثِيقَةَ الْمَدِينَةِ، وَبَثَّ رُوحَ التَّآلُفِ وَالْمَحَبَّةِ.

إِنَّ هُنَاكَ - يَا عِبَادَ اللهِ- مَنْ لَا يَحْلُو لَهُمْ إِلَّا قَطْعُ حِبَالِ تَآلُفِكُمْ، وَتَمْزِيقُ أَوْصَالِ وِحْدَتِكُمْ، وَهَدْمُ بِنَاءِ دَوْلَتِكُمْ، فَلَا يَفْتَؤُونَ يَنْشُرُونَ الشَّائِعَاتِ، وَيَبُثُّونَ الِافْتِرَاءَاتِ، لِأَجْلِ إِضْعَافِ مَنْزِلَةِ الْوَطَنِ فِي النُّفُوسِ، وَهَدْمِ الشُّعُورِ بِالِاعْتِزَازِ بِهِ، مُسْتَغِلِّينَ فِي ذَلِكَ وَسَائِلَ التَّوَاصُلِ الِاجْتِمَاعِيِّ. فَاحْذَرُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- أَنْ تَكُونُوا لِهَؤُلَاءِ أَبْوَاقًا، أَوْ تَجْعَلُوا نَوَادِيَكُمْ لِبِضَاعَتِهِمْ أَسْوَاقًا، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ خِيَانَةً وَتَضْيِيعًا لِلْأَمَانَةِ.

وَقِفُوا أَيُّهَا الْأُخْوَةِ صَفًّا وَاحِدًا فِي وَجْهِ كُلِّ مُرْجِفٍ، وَتَنَبَّهُوا لِسَعْيِ كُلِّ مُفْسِدٍ، اغْرِسُوا فِي أَبْنَائِكُمْ حُبَّ الْوَطَنِ وَالِاعْتِزَازَ بِإِنْجَازَاتِهِ الْحَاضِرَةِ وَمَجْدِهِ التَّلِيدِ، حَتَّى يُحَقِّقُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْمُوَاطَنَةِ الصَّالِحَةِ، فَهُمْ أَمَلُ الْوَطَنِ بَعْدَ اللهِ ﷻ.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ غَدَا فِكْرُ الْخَوَارِجِ الضَّالِّينَ خَطَرًا عَلَى الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَكَادُ تَخْلُو مِنْهُمُ الْبِلَادُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَغَيْرُ الْإِسْلَامِيَّةِ. هَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفُونَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، كَمْ خَدَعُوا مِنْ شَابٍّ وَشَابَّةٍ، بَلْ فَتًى وَفَتَاةٍ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ تَحْذِيرٌ مِنْ فِرْقَةٍ بِعَيْنِهَا مِنْ فِرَقِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا الْخَوَارِجَ، فَقَدْ وَرَدَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ حَدِيثًا بِسَنَدٍ صَحِيحٍ أَوْ حَسَنٍ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِضَرَرِهِمُ الْجَسِيمِ عَلَى الْأُمَّةِ، وَالْتِبَاسِ أَمْرِهِمْ عَلَى النَّاسِ، وَاغْتِرَارِهِمْ بِهِمْ؛ إِذْ ظَاهِرُهُمُ الصَّلَاحُ وَالتَّقْوَى، وَلِأَنَّ مَذْهَبَهُمْ لَيْسَ قَاصِرًا عَلَى الْآرَاءِ وَالْأَفْكَارِ، بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ.

وَلَعَلِّي أُعَرِّجُ عَلَى بَعْضِ صِفَاتِهِمُ الثَّابِتَةِ فِي السُّنَّةِ:

الصِّفَةُ الْأُولَى: صِغَارُ السِّنِّ. **الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ**: الطَّيْشُ وَالسَّفَهُ. **الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ**: إِيمَانُهُمْ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ. **الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ**: الْكَلَامُ الْحَسَنُ الْمُنَمَّقُ.

وَدَلِيلُ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعَةِ: مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ: إِعْجَابُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ: أَخْرَجَ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذُكِرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: - وَلَمْ أَسْمَعْهُ مِنْهُ - «إِنَّ فِيكُمْ قَوْمًا يَعْبُدُونَ وَيَدْأَبُونَ، حَتَّى يُعْجَبَ بِهِمُ النَّاسُ، وَتُعْجِبَهُمْ نُفُوسُهُمْ».

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: الِاجْتِهَادُ فِي الْعِبَادَةِ: أَخْرَجَ مُسْلِمٌ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ». وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا لَقِيَهُمْ قَالَ: «فَدَخَلْتُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ أَرَ أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْهُمْ، أَيْدِيهِمْ كَأَنَّهَا ثِفَنُ الْإِبِلِ [أَيْ غَلِيظَةٌ]، وَوُجُوهُهُمْ مُعَلَّمَةٌ مِنْ آثَارِ السُّجُودِ».

الصِّفَةُ السَّابِعَةُ: التَّكْفِيرُ، وَاسْتِبَاحَةُ الدِّمَاءِ: أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ عَنِ الْخَوَارِجِ: «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ». قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى»: فَإِنَّهُمْ يَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ مُرْتَدُّونَ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَحِلُّونَ مِنْ دِمَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَيْسُوا مُرْتَدِّينَ. فَاحْذَرُوهُمْ يَا عِبَادَ اللهِ عَلَى أَبْنَائِكُمْ وَفَلَذَاتِ أَكْبَادِكُمْ، فَكَمْ حَذَّرْنَاكُمْ مِنْهُمْ، وَسَنَبْقَى بِإِذْنِ اللهِ إِلَى آخِرِ نَفَسٍ نُحَذِّرُ مِنْ كُلِّ مُخَرِّبٍ مُفْسِدٍ مَهْمَا كَلَّفَنَا ذَلِكَ، وَلَوْ كَلَّفَنَا أَرْوَاحَنَا، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.